من سوسيولوجيا الأدب إلى سوسيولوجيا النص
قراءة في تجربة حميد لحميداني

د. عبد الوهاب شعلان
المركز الجامعي سوق أهراس

توطئة:

نسعى من خلال هذه الورقة إلى تقديم الأطر الكبرى التي تحكم المقاربة السوسيونقدية Sociocritiqueبوصفها اتجاها نقديا، ينحو إلى قراءة النصوص الأدبية من زاوية سوسيولوجية، تعيد النظر في المقولات النقدية الكلاسيكية مثل الانعكاس، والالتزام الإيديولوجي، والمضمون الثوري... التي راجت لدى النقاد الماركسيين والسوسيولوجيين، وتطمح إلى استثمار الأدوات الإجرائية التي توفرها المناهج النصية الجديدة.

انطلاقا هذه الرؤيا، نحاول الاقتراب من الخطاب النقدي عند حميد لحميداني، من زاوية مقاربته للرواية المغربية، وفق رؤيا بنيوية تكوينية. ونراهن– في هذه الدراسة –على مدى استحضاره الأسس المنهجية في قراء ته النصوص الروائية، في سياق خصوصيات الإطار النقدي الذي يتحرك ضمنه.

النقد العربي ورهان الممارسة السوسيونصية:

من بين أهم ملامح الخطاب النقدي العربي المعاصر تلك النقلة التي حدثت في مسار النقد السوسيولوجي منذ السبعينيات من القرن العشرين، فقد ظهر جيل جديد من النقاد والباحثين سعوا إلى مراجعة الممارسة النقدية السوسيولوجية، وتخليصها من سلطة المفاهيم الأيديولوجية، وذلك من خلال تطعيم هذه الرؤيا بمقولات المناهج النصية المعاصرة وآلياتها الإجرائية.

لقد نزع هذا الجيل إلى إعادة المكانة لبنية النص الأدبي، وجعلها المرجعية الأساس في القراءة دون القطيعة مع المرجعيات الخارجية مثل: المجتمع، والواقع، والإيديولوجيا.

لقد كان السؤال المركزي لدى هذا الجيل هو: كيف نحرر النص من هيمنة الإيديولوجيا وسلطة المضامين الاجتماعية، وفي الوقت نفسه كيف نبرز طابعه الوظيفي في سياق النسق الاجتماعي العام ؟

إن هذا الهاجس النقدي هو الذي دفع عددا هاما من النقاد العرب المعاصرين إلى العودة إلى إنجازات النقد السوسيونصي الغربي كما تجلى لدى رواده أمثال لوسيان غولدمانL.Goldman، الذي طرح مفهوم البنيوية التكوينية STRUCTURALISME GENETIQUEوميخائيل باختينM.Bakhtine في أطروحاته المتميزة عن الكرنفالCarnaval ، والحوارية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

DIALOGISME ،وبيارزيما V.Zima الذي بلور نسقا منهجيا سماه:سوسيولوجيا النص الأدبي Sociologie du texte litteraire ،إضافة إلى جوليا كرستيفاJ.Kreistiva، وبيارماشري P.Machery الذي عرف مفهوم النقد الاجتماعيٍSociocritique ٍ عِنده أبعادا منهجية أكثر إجرائية وعلمية.

وفي سياق هذه الرؤيا الجديدة ظهرت منذ السبعينيات والثمانينيات عدة محاولات نقدية تتفاوت –لا محالة –من حيث القيمة المعرفية، و الجرأة المنهجية، والقدرة على خلخلة نسق المقاربة العربية التقليدية. والأهم من كل ذلك من ناحية تقديم قراءة سوسيونصية تحظى بشيء من الإبداع والأصالة في تقريب المفاهيم والأدوات المنهجية،و تطويعها لخصوصيات النص العربي.

وقد تجلت هذه المحاولات عند ثلة من النقاد العرب المعاصرين، أمثال يمنى العيد في لبنان، والطاهر لبيب في تونس، وسعيد يقطين ومحمد برادة وحميد لحميداني في المغرب، وفاضل ثامر في العراق، وسيد البحراوي في مصر، وغيرها من المحاولات النقدية التي سعت إلى تجاوز الطرح السوسيولوجي الكلاسيكي، وتبنت أطروحات جديدة تقوم على الاستفادة من مناهج النقد النصي المعاصر.

وقد حظيت البنيوية التكوينية باهتمام مميز لدى النقاد العرب المعاصرين، لما يوفره هذا المنهج من إمكانات إجرائية تسمح بتقصي الجوانب المختلفة للنص، وتسهم في تأسيس ممارسة نقدية تجمع بين الصرامة العلمية من جهة، والإصغاء إلى أسئلة النص الفكرية والاجتماعية والايديولوجية من جهة أخرى.

ضمن هذا السياق، جاءت محاولات محمد رشيد ثابت في دراسته: البنية السردية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام، والطاهر لبيب في:سوسيولوجيا الغزل العذري، وسعيد علوش في:الرواية والإيديولوجيا، ومحمد برادة في أطروحته عن محمد مندور وتنظير النقد العربي، ومحمد بنيس في دراسته عن:الشعر المعاصر في المغرب:مقاربة بنيوية تكوينية...وغيرها من الدراسات التي انتهجت التحليل الغولدماني خاصة والبنيوي التكويني بشكل عام.

وقد لاقى هذا الاتجاه رواجا كبيرا عند النقاد العرب المعاصرين. ونظرا لصعوبة الإلمام بكافة المحاولات النقدية التي تصب في هذا الإطار، فإننا سنقدم تجربة واحدة، هي تجربة الناقد المغربي حميد لحميداني، الذي نعتقد أنه أبرز من جسد هذا المنحى، ليس في النقد المغربي فحسب، و إنما في النقد العربي عامة.

حميد لحميداني: إشكاليات المنهج

تندرج كتابات حميد لحميداني النقدية المتعددة ضمن سياق عام، أساسه الرغبة في استحضار المناهج المعاصرة، والعمل على تبيئتها في الفضاء الثقافي والإبداعي العربي.

لقد كانت محاولته النقدية:" بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي " تسعى إلى الكشف عن الطاقات المنهجية والإجرائية لمنهج وصفي صنع الحدث الفكري والفلسفي في أوروبا في فترة ما، أعني بذلك البنيوية. وإذ يلح الناقد على أهمية الصرامة المنهجية والدقة العلمية لهذه الممارسة، فإنه يرى أن محاولة « تطبيق

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

معطيات المنهج البنائي على النص العربي لم يكن أبدا يخلو من خصوصية. لذلك يصبح من مهام هذه الدراسة أن ترصد التغيرات الحاصلة في المقاربة البنائية للسرد سواء من جانبها النظري أو من جانبها التطبيقي »[1].

لقد نحا الناقد في هذه المحاولة إلى تقريب الأسس المنهجية لتحليل النص السردي، متنقلا بين الشكلانيين الروس، و تودوروف Todorov، وغريماس A.G.Greimas،وكلود بريمون C.Bremond،وجيرار جنيت G.Ginette،وبارت R.Barthes وغيرهم من النقاد الذين ثاروا على المقاربات الانطباعية والتاريخية في قراءة النص السردي.

تنحو هذه الدراسة منحى بنيويا محايثا، ولكنها تنفتح– في بعض الأحيان–على رؤى نقدية أخرى، مما أحدث شيئا من الإرباك المنهجي[2].وهو أمر يبدو حاضرا في أكثر من مقام، ففي معرض تحليله رواية "العشاء السفلي" لمحمد شكري، يصرح لحميداني بأنه «ينبغي توجيه القراءة إلى الاهتمام في المقام الأول بالبنية النصية التركيبية والدلالية من اجل تقديم قراءة تأويلية تقريبية لعالمها الخاص»[3].ولكن مسار التحليل يكشف عن قراءة تتوخى آليات التحليل النفسي، أكثر مما تراهن على جمالية الكلمة وبنية النص اللغوية.

وقد انفتح لحميداني على النقد السوسيونصي، كما يبدو ذلك في كتابه " النقد الروائي والإيديولوجيا: من سوسيولوجيا الرواية إلى" سوسيولوجيا النص الروائي"، على الرغم من أن هذه المحاولة ظلت تتراوح بين المفاهيم الإيديولوجية اليسارية التي شكلت إطارا هاما في النقد العربي الحديث، وبين المقاربات السوسيونصية التي انحصرت –هنا– في مجال تقديم أعلامه الكبار (لوكاتش، باختين، غولدمان، زيما، كريستيفا...).

والملاحظ أن الناقد بقدر ما كان يشدد على أن« ما ينبغي التأكيد عليه بالنسبة لهذا الموضوع – يقصد موضوع الإيديولوجيا– الشائك هو أن الإيديولوجيات تدخل إلى عالم الرواية التخييلي كمكون جمالي»[4]، فإنه ظل وفيا– في كثير من الأحيان– للطرح السوسيولوجي، الذي يقارب الإيديولوجيا بصورة إسقاطية فجة، ويغفل أن اللغة هي مدار الأمر في ذلك، أو بعبارة أخرى« الإيديولوجيا تنتج الكلام، والكلام يبني الإيديولوجيا»[5].

وفي بحثه" القصير أسلوبية الرواية:مدخل نظري"، كان باختين حاضرا من خلال تقديم نظرية في الرواية وما تعلق بها من مفاهيم كالحوارية Dialogisme والمونولوجية monologisme، والتهجين hybridation، والكرنفالية carnavalisme...

وحاول في دراسته:القراءة وتوليد الدلالة أن يقدم الإشكاليات النظرية المتعلقة بفعل القراءة والتأويل ومستويات التلقي، مستثمرا ما قدمته الحداثة النقدية الغربية في هذا الشأن، ومعرجا–في بعض المحطات–على الموروث النقدي العربي، بغية استنطاق مقولاته، كما فعل مع مفهوم المقصدية أو الغرض عند عبد القاهر الجرجاني، ومسألة تأويل الأحلام في التراث العربي... والمهم في كل ذلك هو محاورته نصوصا شعرية وسردية، استنادا إلى هذا المخزون النظري الذي بلوره.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

وهكذا يبقى سؤال المنهج سؤالا مربكا وإشكاليا في الممارسة النقدية عند لحميداني كما هو الشأن عند غيره من النقاد العرب المعاصرين، فمن التحليل البنيوي الشكلي، إلى البنيوية التكوينية، إلى نظرية القراءة والتلقي... ولكن على الرغم من هذه التحولات المنهجية – التي لا تخلو أحيانا من اللبس والتشويش– فإن الإطار المحوري الذي تقوم عليه هذه الممارسة يتأسس في عمومه على المزاوجة المنهجية الواعية بين التحليل النصي المحايث من جهة، وقراءة الفضاء السوسيوثقافي العام من جهة أخرى.

حميد لحميداني: النص الروائي المغربي وامتحان المنهج:

شكلت المقاربة البنيوية التكوينية الإطار المرجعي الأساس لكتاب "الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي"، من منطلق أن هذا المنهج أكثر انفتاحا على الدراسات الجمالية التي تهتم ببنى العمل الأدبي الداخلية، و« يعتبر أن الوصول إلى المضمون الإيديولوجي للأعمال الإبداعية لا يتحقق إلا مرورا بعملية تحليل البناء الشكلي في الإنتاج الإبداعي، ومع ذلك فإنه لا يقف عند هذا الحد، وإنما ينتقل إلى مستوى الفهم الإيديولوجي والاجتماعي»[6].لقد كان الرهان منصبا على الطاقة التحريرية للنص التي أكدت عليها البنيوية التكوينية، حيث« يدخل النص في القراءة، فيتحرر من صفات تغلقه على ذاته، وتحرم النقد عليه»[7] كما تقول يمنى العيد.سارت هذه الدراسة في إطارين متكاملين:

أ– التحليل الذي يسعى إلى الكشف عن البنى الفنية وما تحمله من مضامين بعيدا –قدر الإمكان– عن معطيات النص الخارجية.

ب– التفسير: وهو محاولة موقعه النص ضمن بنية أشمل، تشكل أساس الرؤية الاجتماعية للعمل الإبداعي وذلك من خلال آلية التناظر.Homologie

وقبل الشروع في امتحان آليات المنهج الإجرائية على محك النصوص، قدم الباحث نظرة تاريخية عن علاقة الفن الروائي بالمجتمع، منطلقا من البدايات الأولى حيث شكلت الملحمة نواة الفن الروائي كما ذهب إلى ذلك هيغل ولوكاتش. وفي العصر الوسيط سادت رواية الفروسية، روايات رابليه F.Rabelais المعبرة عن سيادة الطبقة الإقطاعية في بداية عصر النهضة، في وقت بدأت فيه بوادر الفكر البورجوازي المناوئ للأفكار العتيقة.

وإذا كان القرن السابع عشر عرف أشكالا روائية مختلفة مثل رواية "الباروك"ورواية " البيكارسك"والرواية "الرسائلية"فإن التاريخ الحقيقي للفن الروائي لا يعلن عن نفسه سوى في القرن الثامن عشر مع ظهور البورجوازية كطبقة مهيمنة، ومؤذنة بعلاقات جديدة، وفكر ثوري مناهض للعلاقات الإقطاعية القديمة، ويظهر ذلك في أعمال ديدروDiderot، وبلزاكBalzac،و تولستويTolstoï، وفلوبيرFlaubert...وامتداداتهم الروائية اللاحقة كما تجلت في الواقعية الاشتراكية، ورواد الحداثة الروائية في الغرب الذين انطلقوا من تصورات سوداوية للواقع أمثال كافكاF.Kafka، وجويس.J

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

Joyce،وبروستM.Proust، وفولكنرW.Faulkner ... وما نتج عن هذا التحول من بروز تيار الرواية الجديدة في فرنسا عند آلان روب غرييه وناتالي ساروت.

كيف قارب لحميداني النص الروائي المغربي من منظور بنيوي تكويني ؟

ربط لحميداني النص الروائي المغربي بإشكالية الموقف والرؤيا، وعليه تم الربط بين رواية متصالحة مع الواقع، وأخرى منتقدة له، وثالثة مسكونة بهاجس الغرب، رواية تقف على حدود الانهيار والطريق المسدود، فيما تنزع أخرى إلى تعميق هاجس الصراع.

ولعل الملاحظة الأساس على هذا التقسيم أنه تقسيم قبلي، أعني أنه يموقع الرواية ضمن إطار فكري معين ثم يلجأ بعد ذلك إلى مقاربتها إجرائيا، مما يؤثر على الممارسة المنهجية والإجرائية، ويضخم من الطابع المفهومي والسوسيولوجي، وهو ما وقع فيه الباحث في هذه المحاولة.

في سياق تحليله روايات عبد الكريم غلاب، يتساءل لحميداني عن الرؤيا التي شكلتها نصوصه عن الواقع الاجتماعي، ودلالة هذه النصوص بالنسبة إلى الفترة التي كتبت فيها. ولذلك نحا إلى « تحليل البنيات الداخلية لهذه الأعمال الروائية، محاولة منا-كما يقول-للوصول إلى رموزها الجوهرية التي تكون أكثر في الدلالة على الرؤية الخاصة للكاتب» [8].وهو ما يعني سعيه إلى الكشف عن الميكانيزمات الداخلية، ودراسة الطبيعة السردية، بغية الوصول إلى تحديد " البنية الدالة "التي تعبر عن موقف الكاتب من الواقع.

إن الروائي هو حامل إيديولوجيا —لا محالة— ولكن يتعين البحث عنها في نصوصه الروائية التخييلية وليس في مقالاته أو تصريحاته السياسية أو كتاباته الصحفية.

تكشف رواية "الأبواب السبعة"-في نظر لحميداني-عن بنية أقرب إلى " بنية السيرة الذاتية"، يتحكم فيها امتدادان:هما داخلي يظهر في خروج الراوي من السجن، وثانيهما خارجي يبدو في فعل الاستقلال، تعتريهما تقطعات تتمثل في سرد بعض الأقاصيص ليست ذات علاقة عضوية بسيرة الكاتب مما أحدث بعض التفكك. إن الامتداد الداخلي (حضور الراوي)، والامتداد الخارجي (الأمة) هو ما يحكم تفاصيل البنية السردية.

وانطلاقا من تيمة النضال ضد المستعمر —وهي تيمة جوهرية في الرواية— يحدد ما يراه الخيط الأساس في النسيج البنيوي. ويصل عبر تحليل بنيوي لعناصر العمل السردي، واستعانة بمعادلات رياضية إلى أن المعادلة:

س[(ك)، أ، ب، ج] = ق، تمثل بنية عميقة دالة Structure profonde signifiante « تتحكم في المسار السردي وتشكل نسيجه عبر الفصول » [9].

وعلى غرار" الأبواب السبعة "حلل لحميداني روايتي" دفنا الماضي "و" المعلم علي " ليخلص إلى أن روايات غلاب ركزت في رؤيتها على الصراع بين الأجيال بدل الصراع الطبقي، وانتهت كلها إلى تكريس رؤيا طوباوية متصالحة مع الواقع، بدا فيها الروائي مجرد ملاحظ للواقع، لا يسهم في تأسيسه، بل إن المراهنة على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

المضمون الاجتماعي جعله يلجأ إلى تقنيات لم ترق إلى مستوى الآليات الفعالة التي تكشف عن ديناميكية الواقع، بل أكثر من ذلك فقد أحدثت تصدعات في المسار الروائي؛ لقد لجأ الراوي إلى القصص الهامشية، واللوحات التسجيلية، والوصف الأثنوغرافي والفولكلوري، أغرقت النص في هوة الضبابية والتعميم أكثر من كونها أضاءت الجوانب المعتمة، وكشفت عن المستور والمكبوت في الواقع.

ويمضي لحميداني في مساءلة النصوص الروائية، مركزا على الأفق الفكري والأيديولوجي، فرواية " جيل الظمأ " لمحمد عزيزالحبابي تؤسس لنظرة تجزيئية شأن روايات غلاب، و" إكسير الحياة " لم تلج الأسباب الموضوعية للصراع الطبقي، واكتفت بالنظرة الطوباوية، بينما ترتد رواية " المغتربون " لمحمد الأحسايني إلى وعي ساذج بالظاهرة الاجتماعية وتنتهي إلى موقف متصالح مع الواقع.

ويلح الباحث على العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون، « فحيث يكون هناك شكل متدهور، فلا ينبغي أن ندعى أنه مع ذلك يتمخض عن مضمون إنساني وأساسي »[10]، ولذلك فإن الفوضى الروائية التي بدت في نصوص غلاب، ومحمد عزيزالحبابي، والاحسايني هي« تسطيح للواقع الاجتماعي، ووصف له من الخارج، وتوظيف الدعابة والحكايا الهامشية، والتعليقات المباشرة، واللوحات الوصفية، كل هذه الأشياء تمخضت عن رؤية اجتماعية عاجزة في معظمها عن استيعاب الواقع الاجتماعي والكشف عن الإمكانيات الموجودة فيه »[11].

لكن الذي يؤخذ على هذه الملاحظة الهامة هو أنها لم تتأسس منهجيا وإجرائيا في البحث النقدي، ولم تتحول إلى بنية قارة تحكم العملية التحليلية، ففي كثير من الأحيان يلجأ لحميداني إلى الأحكام الجاهزة والنهائية، وهي أحكام إيديولوجية قبلية عادة، دون المرور بالأفق الجمالي، مما يشكل تجاوزا واضحا للإطار المنهجي الذي يدعى استلهامه.

لقد تجلى الترابط الوثيق بين الشكل والمضمون –بصورة واضحة– في تحليله للنصوص الروائية التي تنزع إلى انتقاد الواقع وتهجس بالغرب مثل نصوص عبد المجيد بن جلون، ومحمد زفزاف، وعبد الله العروي.

تعد رواية " الغربة " للعروي تحولا ملحوظا على مستوى اللغة والبناء السردي، فلغتها مهموسة، وبناؤها السردي يشتغل على آلية تكسير التسلسل الزمني والوضوح المكاني، وتوظيف الأسطورة والمونولوج الداخلي. و" الغربة " نص روائي يؤكد مقولة أن « المضامين الجديدة تفجر الأشكال القديمة لتخلق تقنيات تعبيرية ملائمة لها »[12]. إن القلق المعرفي والتململ الفكري يتحولان بالضرورة إلى قلق تجاه اللغة " بيت الوجود "كما يقول هيدغير. و الكاتب عند رولان بارت هو ذلك الكائن الذي يغدو الكلام لديه مشكلة: Est écrivain celui pour qui le langage fait problème، هكذا يصرح بارت [13].

لقد راهن عبد الله العروي في رواية " الغربة " على اللغة المتفجرة المتماهية مع موقف جديد ورؤيا مخالفة للسائد، قائمة على الابتعاد عن الاستعراض الحرفي للواقع، وتجاوز الرؤيا الأثنوغرافية إلى الرؤيا الشمولية التركيبية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

ومن منطلق الوضع الهامشي للمثقف البورجوازي الذي يقوده إلى الارتماء في أحضان المغامرة خاصة في بلاد الغرب، تبدو رواية " المرأة والوردة " لمحمد زفزاف —في تحليل لحميداني – فضاء روائيا ينسج تفاصيله عبر اختراق الغرب للمستوى اللغوي عند الروائي، مما أفرز أنماطا تعبيرية جديدة تقوم على « التوليد والاشتقاق والتفكيك اللغوي »[14]، بصورة غدت الرواية أشبه بلعب بالكلمات أتاح استغلال الإمكانيات التعبيرية استغلالا واعيا، يظهر الطاقات اللانهائية للتعبير اللغوي، وقدرته على إخصاب الدلالات.

تقيم نصوص زفزاف علاقة حميمة بين اللغة والواقع، « يصبح الواقع متشظيا ومنتافرا على غرار اللغة التي يتجلى في حروفها وكلماتها، ويتحلى بنسيجها وصورتها »[15].

يسود عالم "كافكاوي "، ويغدو العداء للعالم هو التيمة الأساسية في النص، ومن ثم يتأسس العبث واللاجدوى على شاكلة فضاءات كافكا، وسارترJ.P.Sartre، وكامو A.Camus...

في هذه الرواية يتوقف الزمن، وتنتفي الحبكة القصصية، يسود الهذيان، وتنحو اللغة إلى التشويش. وعلى هذه الصورة تنبني النصوص الأخرى؛ فرواية " حاجز الثلج " لسعيد علوش تتقاطع مع الرواية الجديدة من حيث الحضور القوي للشخصية الفردية سابحة في عالمها الكابوسي، وتوظيف المحاكمات العبثية على طريقة كافكا، والاستفادة من الرمز والأسطورة.

وتغيب البنية التقليدية في رواية " زمن الولادة والحلم " لأحمد المديني، ولكنها لا تسقط في " درجة الصفر في الكتابة ". إن غياب الوحدة والتماسك سببه تعامل جديد وطريف مع اللغة، وبداية التجريب في مجال الكتابة الروائية. لقد لجأ المديني إلى إرباك البنية الروائية المغربية وخلخلة أنماطها التقليدية فيما يشبه " فوضى الكتابة ".

الرواية ومسألة الحوارية:

تحدث لحميداني في أكثر من سياق عن المقاربة الباختينية للرواية وأسهب في الحديث عن الآليات المنهجية والإجرائية لها مثل الحوارية، والكرنفال، والمونولوجية، والتهجين، وحضور الأخر في كلام الذات، والتناص. ولكن يبدو أن الهاجس النظري كان أقوى وأكثر حضورا من الطموح إلى تحويل هذه الإجراءات إلى أدوات لقراءة النص الروائي العربي .

ولنا أن نتساءل: هل أن المرجعية الروائية التي عاد إليها باختين لا تجد لها مثيلا في النص العربي، أم أن ذلك يندرج في سياق الأزمة المزمنة المتمثلة في تلقي إنجازات الآخر، والعجز عن تحويلها وامتصاصها، وادراجهافي إطار عملي وبراغماتي، يأخذ المفاهيم والإجراءات بصورة واعية؟

وفي هذا السياق، يمكن أن نستحضر الدراسة المقتضبة حول رواية " الوطن في العينين " لحميدة نعنع، التي انتهى فيها لحميداني إلى أنها لا تمت بصلة إلى الرواية الحوارية بالمفهوم الباختيني، وذلك لهيمنة صوت واحد هو صوت الراوي—البطل (نادية)، ومن ثم هيمنة سلطة إيديولوجية وأسلوبية محورية تفرض نفسها على الإيديولوجيات الأخرى ذات الكينونة المحدودة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

ثمة صوت واحد يقوم بدور التصنيف والشرح والحكم على الظواهر والأصوات الإيديولوجية الأخرى. ليس هناك حوارية في هذا النص، وإنما هناك حوار، ومع ذلك فالرواية تتغذى من طاقات جمالية خصبة مثل اللغة الشعرية، واللوحات الوصفية، والمفارقات السردية...

إن رواية " الوطن في العينين " رواية مونولوجية ولكنها تنسج بعض العلاقات مع التعددي والحواري، ذلك أن البطل في مثل هذه النصوص- وإن تمحور حول ذاته- فإنه في آخر المطاف لا يعدو أن يكون شخصية « غير قادرة أبدا على الانفراد بفضاء العالم الروائي، فلا بد أن يدرج الكاتب في محيطها عددا من الشخصيات الأخرى النقيضة أو المماثلة أو المحايدة، مما يؤدي إلى نوع من الامتداد لذاتها في مرايا هذه الشخصيات »[16]، فلا تنتهي الذات إلى الأحادية، وإنما تتشتت في ما يقال عنها، وما يتصور بشأنها، وما يؤول من أقوالها وأفعالها.

وإذا كان الأمر كذلك ،فإننا نتساءل: هل كل نص روائي ينتهي حتما إلى طابع حواري ؟ وعليه فما جدوى تميز الخطاب الحواري عند باختين؟

إننا نرى أن شكلا من اللعبة الحوارية لابد أن يتواجد في النص الروائي بحكم طبيعة هذا الجنس الأدبي أولا، ولكن الرهان يكمن في تحويل هذه البذور الحوارية إلى كينونة تخيلية متعددة ومتناقضة في نسق واحد، بحيث يغدو النص متاهة جمالية، تتشتت فيها الأصوات والرؤى والإيديولوجيات، دون أن يعي المتلقي أن ثمة سلطة ما توجه الموقف وتؤطر الرؤيا، بل يجد القارئ نفسه أمام فضاء حواري تتلاقى فيه «التأويلات الممكنة للقضايا المطروحة في حلبة صراع واحدة، وتختفي لذلك سلطة الكاتب أو الراوي الواحد»[17] كما يقول لحميداني.

نكاد نقول إن النص الحواري عند باختين هو الدال التفكيكي عند جاك دريدا، الدال الموزع والممزق، المعنى الغائب واللانهائي. ولقد أفاض باختين كثيرا في إشكاليات الرواية متعددة الأصوات، بل أسس مواقفه النقدية – في عمومها –على شعرية الكتابة الروائية الحوارية التي أسهم في تأسيسها ديستوفسكي:« نعتقد أن ديستوفسكي وحده ينفرد بإمكانية اعتباره مؤسسا حقيقيا لتعدد الأصوات» [18]، كما يقول في كتابه الهام شعرية ديستوفسكي.

خاتمة:

تجسد التجربة النقدية عند حميد لحميداني مثالا واضحا على قدرة الخطاب النقدي العربي على إثراء مقولاته المنهجية، وتجديد مفاهيمه وأدواته الإجرائية، من خلال معانقة الإنجازات المعرفية والنقدية للثقافة الغربية المعاصرة، والاستفادة الواعية والأصيلة منها.

لقد استطاع لحميداني أن يوائم بين الأطروحات النقدية التقليدية في المنهج السوسيولوجي من ناحية، و إجراءات النقد السوسيونصي القائم على المراهنة على اللغة بوصفها الأداة الأساسية في العملية الإبداعية من ناحية أخرى.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

إن هذه الممارسة تكشف عن قابلية المنهج السوسيولوجي للإغناء بواسطة الأدوات الإجرائية النصية، كما تكشف أيضا عن إمكانية تطويع المناهج النصية لتتخلى قليلا عن طابعها النسقي الصارم الذي يوشك أن يحولها إلى أنظمة مغلقة، أو إلى فلسفة لموت الإنسان كما يقول غارودي.

لقد تجاوز لحميداني– في كثير من الأحيان –الأطر المنهجية التي يزعم ممارستها، ولم يلتزم بشكل واضح بالأفق النظري، لاسيما في سياق تحليله الخطاب الروائي المغربي، حيث ظل النسق السوسيولوجي – المضموني أكثر حضورا من المقاربة النصية. وعلى هذا الأساس فإننا نتفق مع رأي الباحث أحمد سالم ولد أباه الذي بين أن دعوة لحميداني إلى الانفتاح على المناهج النصية، انتهت إلى ضرب «من الردة نحو المنظور الاجتماعي للأدب الذي يعتمد جدلية البنية الفوقية والبنية السفلية، ومفهوم الانعكاس، وذلك ما جعله يطيل في جانب المعالجة التفسيرية على حساب مرحلة الفهم »[19]، مما يعد إرباكا واضحا في الرؤيا المنهجية.

وفي اعتقادنا أن مرجع هذا الاضطراب المنهجي هو نزوع لحميداني إلى تقويم العمل الروائي، من منطلق اعتقاده بدوره الحاسم في الواقع الاجتماعي.ويرى أن هذا الدور يأخذ وجهين: ,« الأول يهدف في الغالب إلى الحفاظ على القيم السائدة في الواقع ..... والثاني.....يهدف إلى تغيير القيم اللاإنسانية السائدة »[20]. وهو ما نراه أقرب إلى التصريح الإيديولوجي من إلى الطرح النقدي.

ويبدو أن هذا التشوش المنهجي ينسحب على أغلب الممارسات النقدية العربية المعاصرة، بالنظر إلى أزمة المنهج المزمنة في خطابنا النقدي.

الهوامش:

1- حميد لحميداني بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1993، ط2، ص 05.

2- أشار لحميداني إلى هذه المفارقة المنهجية في معرض حديثه عن الفضاء الروائي لقوله " « في هذا المبحث توسعنا قليلا في دراسة القضايا المطروحة إلى الحد الذي تجاوزنا فيه التصور البنائي أحيانا وغايتنا من ذلك هو طرح المشاكل التي يفرضها موضوع الفضاء، فكثيرا ما يقف التحليل البنائي في مفترق طرق متشعبة، تقتضي مثل هذه الإطلالة على تصورات مغايرة » (راجع بنية النص السردي ص 67).

3- حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة: تغيير عاداتنا في قراء ة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت –الدار البيضاء، ط1، 2003، ص181

4- حميد لحميداني النقد الروائي والإيديولوجيا:من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ط1، 1990، ص40

5- AMOR Seoud, pour une introduction a la sociologie de la littérature ;école normale supérieure ;Sousse; maison tunisienne de l'édition, Tunis p 193

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377

6- حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي: دراسة بنيوية تكوينية، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985، ط1، ص .14

7- يمنى العيد، الراوي:الموقع والشكل: دراسة في السرد الروائي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1986، ص 16.

8- حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ص 109

9- المرجع نفسه، ص 125

الرموز: س = الأمة، ك = شعب البادية، أ = شعب المدن، ب = الزمرة الصغيرة، ج = الراوي، د = المستعمر(هذه الرموز من وضع لحميداني ص124-125)

10- المرجع نفسه، ص 239.

11- المرجع نفسه، ص 239.

12- المرجع نفسه، ص 273.

13- Roland Barthes, Critique et Vérité, Seuil, Paris, 1966, p 50.

14- أنظر نماذج من هذه الأنماط في الصفحة 312-313 من " الرواية المغربية و رؤية الواقع الاجتماعي ".

15- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات: أصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2002، ط1، ص 206.

16- حميد لحميداني، التناص وإنتاجية المعاني، مجلة "علامات في النقد" ج 40 م 10 يونيو 2001، ص 87.

17- حميد لحميداني، أسلوبية الرواية: مدخل نظري، منشورات دراسات سميائية أدبية لسانية، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص 45.

18-ميخائيل باختين، شعرية ديستوفسكي، ترجمة جميل ناصف التكريتي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص 50.

19-أحمد سالم ولد أباه، البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث: دراسة لفاعلية التهجين، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2005، ص 167

20-حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ص17.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/377